

## من أنجلز إلى فرانتس مering في برلين

فريدريك أنجلز

لندن ١٤ تموز ( يوليو ) ١٨٩٣

عزيزي السيد مering

اليوم فقط استطيع اخيرا ان اشركك على تطفك وارسالك لي (اسطورة ليسينغ) .  
واني اود ان لا اکتفي بمجرد بعث تاكيد صريح لك باستلامي الكتاب ، بل ان اقول  
لك ايضاً شيئاً ما عنه بالذات ، عن مضمونه . وهذا سبب تأخري في الجواب .

ابدأ من النهاية ، من الملحق (في المادية التاريخية) الذي عرضت فيه كنه المسألة  
عرضاً ممتازاً ، ومقنعاً لكل امرئ لا رأي مسبقاً له . وأذا كانت تظهر عندي  
بعض الاعتراضات ، فليس ذلك الا على أنك تنسب الي من الأفضال اكثر مما  
ينبغي ، حتى وأن اعتبرنا كل ما يبلغ اليه تفكيري اغلب الظن ، – مع مر الزمن –  
بصورة مستقلة، وما اكتشفه ماركس قبلي بزمن طويل ، وهو الذي يتحلى بنظر ابعده  
وأفق أوسع. ان من حاله الحظ وعمل في سياق ٤٠ سنة مع رجل مثل ماركس ،  
لايتمتع عادة في حياته بذلك التقدير الذي يمكنه ، على ما يبدو ، ان يأمل به . ولكن  
عندما يموت الرجل العظيم ، يحدث بكل سهولة أن يشرعوا في تقدير رفيقه الأقل  
شأناً منه باكثر مما يستحق ، وهذا ما يحدث لي الآن على ما يظهر . بيد ان التاريخ  
يضع كل شي في مكانه في اخر المطاف ، ولكن حتى ذلك ، سأمضي مع السلامة  
الى العالم الآخر، ولن اعرف شيئاً عن أي شيء . وعدا ذلك ، وقع تقصير في  
عنصر آخر فقط ، لم يتناوله التأكيد الكافي ، على العموم والحق يقال ، لا في اعمال  
ماركس ولا في اعماله ، والذنب في هذا المجال نتشاطره جميعنا بالقدر نفسه .  
واعني به اننا ركزنا بصورة رئيسية، وكان ينبغي علينا أن نركز، بادىء ذي بدء ،  
على استخلاص التصورات السياسية والحقوقية وغيرها من التصورات الأيدلوجية،

والأفعال التي تشترطها، من الوقائع الاقتصادية التي تقوم في أساسها . وبسبب المضمون، اهلنا آنذاك مسألة الشكل . أي سبل يتبعها تشكل هذه التصورات، وما الى ذلك . وهذا ما اعطى خصومنا الحجة المنشودة من اجل الأشاعات الكاذبه، وكذلك من اجل تشويهه يقدم باول بارت المثال الساطع عليه.

أن الأيديولوجية انما هي عملية يقوم بها من يسمى بالمفكر ، وأن عن ادراك خاطيء . فإن القوى المحركة الحقيقية التي تحمله على النشاط تظل مجهولة بالنسبة اليه، والا لما كانت العملية عملية أيديولوجية . ولذا يصنع لنفسه تصورات عن قوى حافزة كاذبة أو ظاهرية . وبما أن الكلام يتناول عملية التفكير ، فإنه يستخلص المضمون وشكله على السواء من التفكير الصرف ، اما من تفكيره بالذات ، واما تفكير اسلافه . وهو يعنى بوجه الحصر بمادة تفكيرية ، وهو يعتقد صراحة ان هذه المادة وليدة التفكير ، وهو على العموم لا ينصرف الى دراسة أي مصدر آخر ، اكثر بعدا ومستقل عن التفكير . فإن هذا الموقف من المسألة يبدو له بديهياً لان كل عمل يبدو له مرتكزا في آخر المطاف على التفكير ، أذ انه يتحقق بواسطة التفكير . أن الأيديولوجي التاريخي (والتاريخي هنا يعني مجرد تعبير جامع يشمل المفهوم السياسي والحقوقى والفلسفي واللاهوتي – وبكلمة ، جميع الميادين المتعلقة بالمجتمع لا بالطبيعة) يجد تحت تصرفه في كل ميدان من ميادين العلوم مادة معينة تشكلت بصورة مستقلة من تفكير الأجيال السابقة وأتبعت سبيلا مستقلا ، خاصا بها من التطور في أدمغة هذه الأجيال المتعاقبة واحداً تلو آخر . يقينا انه من الممكن ان تؤثر ايضا في هذ التطور، كأسباب مرافقة ، وقائع خارجية تتعلق بهذا أو ذاك من الميادين ، ولكن هذه الوقائع ، كما يفترض ضمنا ، هي مع ذلك مجرد ثمرات عملية التفكير ، وعليه لانزال دائما في مضمار الفكر الخالص الذي يبدو كأنه هضم بسلامة حتى اشد الوقائع عنادا.

ان ظاهرية التاريخ المستقل لأشكال البنين السياسي والنظم الحقوقية والتصورات الأيديولوجية في اي ميدان كان ، هي التي تعمي ، قبل غيرها ، اغلبية الناس . فأذا

كان لوثر وكالفين (يتغلبان) على الدين الكاثوليكي الرسمي ، وأذا كان هيغل (يتغلب) على كانط وفيخته ، وأذا كان روسو (يتغلب) بعقده الاجتماعي الجمهوري على الدستوري مونتسكيو بصورة غير مباشرة ، فإن هذه العملية تبقى داخل اللاهوت والفلسفة وعلم الدولة ، وهي تمثل مرحلة في تطور ميادين التفكير هذه ولا تتخطى إطلاقاً حدود التفكير . ومنذ أن ظهر ، علاوة على هذا ، الوهم البرجوازي حول خلود الأنتاج الراسمالي وكماله المطلق، منذ ذلك الحين ، يعتبر ( تغلب ) الفيزيوقراطيين وأدم سميث على أنصار الماركنتيلية أنتصاراً خالصاً للفكر، لا انعكاساً في ميدان التفكير للوقائع الاقتصادية المتغيرة، يعتبر انه الفهم الحقيقي، الذي تم بلوغه في آخر الامر ، للظروف الفعلية القائمة في كل مكان دون أي تغير . ينجم مما سبق انه لو ان ريتشارد قلب الاسد وفليب – أوغست طبقا حرية التجارة بدلا من ان ينجرا الى الحروب الصليبية ، لأمكن تجنب ٥٠٠ سنة من الفقر والجهل . واني اعتقد اننا جميعنا اولينا هذا الجانب من القضية الذي لم استطع ان المسه هنا الا لمسأ، قدراً من الاهتمام اقل مما يستحق . وهذه حكاية قديمة . دائما في البدء لا يهتمون بالشكل بسبب المضمون . وكرر انني اقترفت هذا الخطأ بنفسي، وكان هذا الخطأ يفتأ عيني دائماً (Post festum) ولهذا لست بعيداً وحسب عن توجيه اللوم اليك بالارتباط مع هذا – فليس لي أي حق في هذا لاني اذنبت قبلك في الامر نفسه، بل بالعكس، – ولكنني وددت مع ذلك لو الفت انتباهك الى هذه النقطة من اجل المستقبل .

وبالارتباط مع هذا ، يوجد أيضا تصور سخيف عند الايديولوجيين . فنحن لا نقر بالتطور التاريخي المستقل لمختلف الميادين الايديولوجية التي تضطلع بدور في التاريخ، فننكر بالتالي كل امكانية لتاثيرها في التاريخ . وفي اساس هذا ، يقوم تصور سطحي ، غير دياكتيكي ، عن السبب والنتيجة يعتبرهما قطبين متضادين احدهما للآخر ابدأ و دائماً ، ويغيب عن البال كلياً التفاعل بينهما . ان هؤلاء السادة ينسون في كثير من الاحيان ، قصداً وعمداً تقريباً أن الظاهرة التاريخية ، التي تولدها بالاحرى اسباب من طراز آخر هي في آخر المطاف اسباب اقتصادية ،

تصبح على الفور بدورها عاملاً فعالاً ، ويمكنها ان تؤثر بالمقابل في البيئة المحيطة وحتى في الاسباب التي ولدتها . بارت ، مثلاً ، بصدد المرتبة الدينية والدين ، عندك في ص ٤٧٥ . فقد أعجبني جداً كيف صفت حساب هذا الكائن السافل الى درجة لا تصدق . وهذا الكائن يعينونه استاذ التاريخ في ليبزيغ ، مع انه كان هناك العجوز فاكسموت ، وهو والحق يقال ، رجل ضيق الافق مثل بارت ، ولكنه رجل من طراز آخر تماماً ، ويمتلك ناصية الوقائع بصورة ممتازة.

أما في ما يخص الكتاب ، ففي وسعي على العموم أن اكرر فقط ما سبق ان قلته غير مرة بصدد المقالات التي ظهرت في ( neue zeit ) . فهو افضل عرض بين العروض المتوفرة عن ولادة البروسية ، بل أن في وسعي ، اغلب الظن ، أن اقول انه العرض الجيد الوحيد الذي يكشف بصورة صحيحة، في معظم الاحوال ، جميع الصلات المتبادلة ، بما فيها تفاصيلها الصغيرة . الا انه يمكن الاسف لأنك لم تستطع ان تدرس كذلك كل التطور اللاحق حتى بيسمارك . وبصورة عفوية ، يولد الامل بأنك ستفعل هذا في المرة القادمة وتعطي لوحة عامة في عرض مترابط، أبتداء من الكورفورست (الامير) فريدريك غيليوم وأنتهاء بغليوم العجوز . ذلك انك قمت بالعمل مسبقاً، بل انه يمكن القول انك قمت به نهائياً، على الاقل في المسائل الاساسية . والحال كان ينبغي القيام بذلك قبل ان ينهار كل هذا الصرح المتداعي . صحيح ان تدمير الاساطير الملكية الوطنية ليس مقدمة ضرورية بالقدر المظنون لأجل القضاء على الملكية التي تستر السيادة الطبقيّة (لأن الجمهورية الخالصة ، البرجوازية في المانيا صارت مرحلة من الماضي قبل ان تنشأ) ، ولكنه يشكل مع ذلك واحداً من اكثر الروافع فعالية لأجل هذا القضاء .

وانذاك سيتوفر لك مزيد من المجال والامكانيات لاجل تصوير تاريخ بروسيا وحدها بوصفها جزءاً من العاهة الالمانية العامة. وهذا ما يشكل تلك النقطة التي اختلف معك في شيء ما بصددها ، واعني بها فهمك لمقدمات تجزؤ المانيا ولفشل الثورة البرجوازية الالمانية في القرن السادس عشر . وأذا تسنى لي وعدلت المقدمة

التاريخية لكتابي (حرب الفلاحين) ، الامر الذي سيحدث ، كما أظن ، في الشتاء القادم ، فأني سأستطيع أن اطور فيها المسائل المتعلقة بهذا الموضوع . وليس ذلك لاني اعتبر المقدمات التي اوردتها غير صحيحة ، بل لاني ساقدم الى جانبها مقدمات أخرى واصنفها بنحو مختلف نوعا ما .

عند دراسة التاريخ الالمانى الذي هو عبارة عن حقارة وحسب ، أقتنعت دائما بأن المقارنة مع العهود المقابلة من تاريخ فرنسا هي وحدها التي تعطي البعد الصحيح ، لانه حدث في فرنسا تماما عكس ما حدث عندنا . فهناك - تشكل الدولة القومية من *disjectis membris* الدولة الاقطاعية ؛ وعندنا ، في الوقت نفسه - الهبوط الاعمق . هناك - منطق موضوعي بديع في كل سير التطور ؛ وعندنا - بلبلة رهيبه،مشتدة أكثر فأكثر . هناك - في مرحلة القرون الوسطى ، كان الفاتح الانجليزي الذي يتدخل في مصلحة قوم أقليم بروفانس ضد قوم فرنسا الشمالية ، ممثلاً للتدخل الاجنبي . والحروب ضد الانجليز هي نوع من حرب الثلاثين سنة التي تنتهي هناك بطرد الاجانب المتدخلين وبخضوع الجنوب للشمال . ثم يعقب نضال السلطة المركزية ضد التابع البورغندي الذي يعتمد على ممتلكاته في الخارج والذي يوازي دوره دور براندنبورغ - بروسيا . ولكن هذا النضال ينتهي بانتصار السلطة المركزية وينجز تشكيل الدولة القومية . أما عندنا فان الدولة القومية تنهار نهائيا في هذا الوقت بالذات (هذا اذا كان من الممكن تسمية الملكية الالمانية ضمن حدود الامبراطورية الرومانية المقدسة بالدولة القومية) ويبدأ ، على نطاق كبير ، سلب الاراضي الالمانية . وهذه مقارنة مخجلة للغاية للالمان ، ولكنها لهذا السبب على وجه الضبط ذات دلالة خاصة ؛ ومنذ أن قدم عمالنا المانيا من جديد الى الصفوف الاولى من حركة التاريخ ، أصبح من الاسهل علينا بعض الشيء احتمال خزي الماضي.

أن السمة المميزة الخاصة تماما التي يتميز بها التطور الالمانى تقوم أيضا في أن القسمين اللذين يشكلان الامبراطورية واللذان تقاسما بينهما في آخر المطاف المانيا

باسرها ، ليسا كلاهما المانيين صافيين ، بل كانا مستعمرتين في الارض السلافية المفتوحة ، النمسا مستعمرة بافاروية ، وبراندنبورغ مستعمرة ساكسونية ؛ ولم يظفرا بالسلطة في المانيا بالذات الا لانهما كانا يعتمدانه على ممتلكاتهما الاجنبية ، غير الالمانية ؛ النمسا - على المجر (فضلا عن بوهيميا) ، براندنبورغ - على بروسيا. وعلى الحدود الغربية المتعرضة للخطر الاكبر ، لم يكن هناك شيء من هذا القبيل ؛ وعلى الحدود الشمالية ، عهدوا الى الدنماركيين أنفسهم بامر حماية المانيا من الدنماركيين ؛ وفي الجنوب كانت الحاجة الى الحماية على درجة من التفاهة بحيث أن الذين كان ينبغي عليهم أن يحموا الحدود - أي السويسريين - أستطاعوا ان ينفصلوا عن المانيا ؛ ولكني أنسقت وراء محاكمات متنوعة؛ فلتكن هذه الثثرة بالنسبة لك، على كل حال ، برهانا على مبلغ الاهتمام الحي الذي أستثاره عمك في نفسي.

مرة أخرى الشكر القلبي والتحية من المخلص لك

فأ

- 
- صدرت للمرة الأولى مع اختصارات في كتاب لفرانتس مهريينغ في عام ١٨٩٨ في شتوتغارت
  - وصدرت بنصها الكامل باللغة الروسية في مؤلفات ماركس وانجلز ، الطبعة الاولى ، المجلد ٢٩ ، عام ١٩٤٦
  - المصدر المعتمد : مختارات ماركس انجلز الجزء الرابع ص ١٦٨ - ص ١٧٤ ترجمة الياس شاهين

جهة الإصدار : دار التقدم موسكو

سنة الاصدار : ١٩٨٧

النسخ الالكتروني : ابتهاج حسين